

في مفهوم الشركة الكنسية

(١٠)

الأب أنتوني م. كونيارس^(١)

سر القريب



أفرد العالم اللاهوتي الأرثوذكسي الفرنسي الشهير أوليفي كليمان the French Orthodox Theologian Olivier Clement عبارة قال فيها: إِنَّ واحداً من أسوأ الانشقاقات في تاريخ المسيحية هو: "الفصل بين سرّ المذبح وسرّ القريب". نفس المسيح الذي يأتي إلينا في سرّ المذبح (الإفخارستيا) يأتي إلينا كل يوم في سرّ المتألم، الجائع، الذي ليس له مُعين، المسجون أكان أخواً أو أختاً: «لَأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي ... الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدٍ هَوْلَاءِ الْأَصَاغِرِ فِي لَمْ تَفْعَلُوا» (مت ٢٥: ٣٤ - ٤٠).

هذا الانشقاق الخاطيء في حاجة إلى شفاء، ف: "سرّ المذبح"، في احتياج أن يعاد اتّحاده مع: "سرّ الأخ الصّغير"، ولكن كيف يمكن لهذا أن يتمّ؟ هذا يُمكن أن يتمّ عندما تمارس الكنيسة: "القُدّاس الذي بعد القُدّاس"، عندما نخرج لنكتمل القُدّاس بخدمة احتياجات نفس المسيح الذي تقابلنا معه، والذي أخذناه في سرّ التناول على المذبح. إنّه نفس المسيح الذي يظهر أمامنا في شكل الجائع، المُسنّ، الضّعيف، المعوّق، النّحيل من الجوع، الغريب، وإنسان الشّارع المُتسّي الذي ليس له مأوى. هذا هو جسد المسيح كمثل الذي على المذبح والذي علينا أن: "نميّزه" كما قال بولس الرّسول إلى أهل كورنثوس. إنّه في الحقيقة هو نفس الجسد الذي نتقابل معه على المذبح.

في حالات كثيرة، يكون انفعالنا الأول هو أن نتحوّل عن هؤلاء الأصاغر، لأنّهم يذكروننا بضعفنا وفنائنا، إلا أن واجبنا واضح:

«بَلْ بِالْأُولَى أَعْضَاءُ الْجَسَدِ الَّتِي تَطْهَرُ أضعف هي ضروريّة. وَأَعْضَاءُ الْجَسَدِ

(١) عن كتابه بعنوان:

Anthony M. Coniaris, *The Eye Cannot Say to the Hand "I Have No Need of You"* Light and Life, 2005.

الَّتِي نَحْسِبُ أَنَّهَا بِلاَ كَرَامَةٍ نُعْطِيهَا كَرَامَةً أَفْضَلَ. وَالْأَعْضَاءُ الْقَبِيحَةُ فِينَا لَهَا جَمَالٌ أَفْضَلُ. وَأَمَّا الْجَمِيلَةُ فِينَا فَلَيْسَ لَهَا احْتِيَاجٌ ... فَإِنْ كَانَ عَضْوٌ وَاحِدٌ يَتَأَلَّمُ، فَجَمِيعُ الْأَعْضَاءِ تَتَأَلَّمُ مَعَهُ. وَإِنْ كَانَ عَضْوٌ وَاحِدٌ يُكْرَمُ، فَجَمِيعُ الْأَعْضَاءِ تَفْرَحُ مَعَهُ» (١ كو ١٢: ٢٢ - ٢٤).

المطران ليونتي Leonty الرئيس الأوّل للكنيسة الأرثوذكسيّة في أمريكا OCA، كان له طريقة لطيفة ليزيل الانفصال بين سرّ المذبح وسرّ القريب. فعند نهاية كلّ خدمة، وعند قدوم المصلّين ليقبّلوا الصّليب الذي يُمسك به وهم منصرفون، كان في السرّ يُزلق بعض التّقود لأيّ شخص كان يعرف أنّه فقير ومحتاج. كان بهذا العمل يخدم نفس المسيح الذي يتقابل معه على المذبح.

القديس أنبا أنطونيوس St. Anthony كان يُعبّر عن هذا بإحكام عندما يقول: [حياتنا وموتنا هي في يد أختينا].

والقديس سلوانس الروسي Silouan of Athos الذي من جبل آثوس يقول باختصار شديد: "أخوك هو حياتك".

نحن نخلص معاً، بأنّ نكمّل خلاصنا معاً كأعضاء لجسد المسيح وأعضاء لبعضنا لبعض. كيفيّة اتّصالنا وارتباطنا ببعضنا ببعض تنم عن كيفيّة ارتباطنا بالله^(٢).

كيف يُمكننا أن ننسى عبارة الأب أليكسي كومياكوف Alexis Khomiakov الكلاسيكيّة الأدبيّة في قوله بخصوص هذا الموضوع:

"عندما يسقط أيّ واحدٍ منّا، فهو يسقط بمفرده، ولكن لا يُمكن لأحد أن يخلص بمفرده. من يخلص، فهو يخلص في الكنيسة، كعضو فيها، وفي وحدة بجميع الأعضاء الآخرين".

الأب زوسيمّا Abba Zosimos

يُعبّر الأب زوسيمّا عن كيف نخدم الواحد الآخر كأعضاء في جسد المسيح الواحد فيقول:

(2) John Chryssavgis, *Soul Mending: The Art of Spiritual Direction*. Holy Cross Orthodox Press. Brookline, MA. 2002.

”في الواقع، الله خلقنا في جسد من أعضاء كثيرة، وفيه المسيح إلهنا هو الرأس كما يقول الرسول: «لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة... ورأس الكل المسيح» (١ كو ١٢: ١٢). لذلك، عندما يضايقك أخوك، هو يؤذيك مثل يدك أو عينك التي تتألم من بعض المرض. ومع ذلك، فعندما نتألم، فنحن لا نقطع يدنا ونلقيها بعيداً، ولا نقلع عيننا، ولكن في الواقع نحن نعتبر أن رفض أيًا من هذه الأعضاء أمر خطير جدًا. ولكن بدلاً من ذلك، نحن نرشم هذه الأعضاء الجسدية بعلامة المسيح، والتي هي أئمن من أي شيء آخر، ونتوسل إلى القديسين أن يصلوا لأجلها، كما نقدم صلوات حارة للإله من أجلها. وبالإضافة لذلك، فنحن نقوم باستخدام أدوية لشفاء هذه الأعضاء المريضة. لذلك، فبنفس الطريقة التي تصلي بها لأجل عينك أو يدك لشفائها فلا تعود تؤذيك، هكذا بنفس الطريقة عليك أن تتعامل مع أخيك (الذي هو مثل يدك أو عينك عضوًا في جسدك)“.

علينا أن نعالج أعضاء الجسد المتألّمة والمجروحة مثلما نعالج تمامًا يدنا أو عيننا المصابة.

يضيف الأب زوسيميا ويقول:

”تعليم القديس بولس لنا جميعًا بخصوص أننا أعضاء في جسد المسيح لا بدّ أن يُلهمنا للمقولة الشهيرة: "لا تتعب في البحث عن لمن يُقرع الناقوس، إنه يُقرع لك"، والشخص الآخر الذي يُقرع له الناقوس هو جزء منّي في شركة الجسد، وبحسب كلمات يوحنا دون John Donne: "ليس أحد منّا جزيرة، منعزلة بنفسها، فكل شخص هو جزء من القارة، جزء من الكل"“.

نحن ننتسب الواحد للآخر

يقول بولس الرسول: «هكذا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح، وأعضاء بعضًا لبعض، كل واحد للآخر» (رو ١٢: ٥). إن كُنّا أعضاء بعضًا لبعض، فنحن ننتسب كل واحدٍ للآخر، كأعضاء في جسد المسيح نفسه، فنحن ننتسب كل واحدٍ منّا للآخر في المسيح،

ولذلك نصير مسؤولين عن كل واحد في اسم المسيح.

ينبغي على كل واحد منا أن يقدر أن يقول لقريبه العضو معه في جسد المسيح: "أنا محتاج إليك؛ أحتاج إليك لتساعدني في أن أحقق كل إمكانياتي في المسيح، أحتاج إليك لتساعدني أن أعرف أكثر عن ذاتي، أحتاج إليك لتساعدني لأكون أكثر تفاهمًا، أكثر صبرًا، أكثر إيمانًا، أكثر أمانة، أكثر محبة، وأكثر رجاءً". نحن مسؤولون الواحد عن الآخر بما أننا متكون على بعض في شركة koinonia جسد المسيح.

عبر القديس باسيليوس عن هذا بطريقة درامية عندما كتب:

[الخبز الذي يتبقى في بيتك دون أن تأكله، هو من نصيب الفقير، الثوب المعلق في خزانة ملابسك دون أن تستخدمه هو ثوب العريان، الحذاء الذي يزيد عنك وهو في بيتك هو من حق الفقير الذي يسير حافيًا، المال الذي تخبئه بدون استخدام يخص الفقير. أخبرني كم تعديت ارتكبتها في حق الفقير وكان يجب أن تكون من نصيبه].

غالبًا كان يحدث هذا في القديم وأما الآن فقد نسينا أننا ننتسب بعضنا إلى بعض كأعضاء في جسد المسيح. منذ سنين غابرة، عندما كان الفلاحون يأتون من الريف إلى مدينة كبيرة مثل ميلانو في إيطاليا بحثًا عن عمل، كانت الكنيسة تتجاهلهم، بينما كان الشيوخ يفتحون مخازن لهم، ويرحبون بهم، ويساعدونهم في إيجاد أعمالاً لهم. صارت الكنيسة مؤسسة إدارية، وتناست أعظم وصية لسيدها، محبة أعضاء الجسد الواحد: «إن كان عضو واحد يتألم، فجميع الأعضاء تتألم معه». إن كنا لا نشعر بالأمهم، فهذا لأننا لسنا أعضاء حقيقيين في الجسد.

تذكر الناس الذين ننتسب إليهم

عندما نقع في تجربة، يحاول العدو أن يجعلنا ننسى أننا ننتسب إلى بعض كأعضاء في نفس الجسد، ويوعز إلينا، على سبيل المثال، بأن الخطيئة التي نرتكبها تخصنا نحن بمفردنا، وهذه كذبة كبيرة، فنحن لسنا جُزراً معزولة، لأننا جميعًا مربوطون في جسد. نحن ننتسب بعضنا لبعض. عندما تسقط أنت أو أنا، فإن الكنيسة كلها تسقط معنا، لذلك إن كان لا يوجد

شيء آخر يمسك بنا عندما ننوي أن نخطئ، علينا أن نتذكر عائلتنا، نتذكر الناس، والجسد،
والمسيح الذي تنتسب له، كيف سيؤثر هذا فيهم؟ وماذا سيفعل فيهم؟

نحن نتسب بعضنا إلى بعض، وإذا سأل أحد: "هل يمكن أن يوجد إنسان مسيحي خارج الكنيسة؟" يمكننا أن نسأل السائل: "هل يمكن أن تكون الأنف أنفاً إذا نُزعت من الوجه؟" فقط عندما نكون مرتبطين بالجسد، يمكننا عندئذ أن نأخذ الغذاء ونظّل أحياء لنكون قادرين على المشاركة لصالح الجسد كله. في العزلة نموت، في الشركة koinonia والاعتماد على بعض نعيش.

الكنيسة كجسد المسيح هي جزء متكامل من خطة الله للخلاص. إنه فقط بالشركة مع المؤمنين الآخرين في الجسد، يأتي كل إنسان إلى معرفة نفسه، ممّا يجعله قادراً أن يعمّق شركته مع الله. لا يمكننا أن نصل إلى هذا بمفردنا كأفراد مُنعزلين متوحّدين. الله دبّر لنا أن نمسك بأيدي بعض ونسير معاً خصوصاً في وقت الشدائد. المسيح يعمل من خلال جسده. من خلال جماعة المؤمنين في الجسد، من خلال إخوتنا وأخواتنا في المسيح، يعبر بنا الله الأوقات الصعبة.

نحن نتسب إلى بعض كأعضاء في جسد المسيح: «هكذا نحن الكثيرين: جسد واحد في المسيح، وأعضاء بعضاً لبعض، كل واحد للآخر» (رو ١٢: ٥).

متصلون بالذين في الوطن السماوي

عندما كانت القوات الأمريكية تُقاتل في كوريا، استقلّ صحفي السيارة مع رقيب. وبينما كانت السيارة الجيب تهتز يميناً ويساراً، سأل الرقيب: "هل جئت للتو من الولايات المتحدة؟" فردّ الصحفي: بأنه كان كذلك. كان الجندي يريد أن يعرف ما الذي كان يفكر فيه الناس في الوطن، وما الذي يقولونه عن الحرب. أخيراً قال الرقيب: "كما تعلم، موضوع الروح المعنوية هذا أمر عجيب. إنه ليس كما يعتقد الكثير من الناس. لا يتعلّق الأمر بشرب البيرة، ولا ببرامج تلفزيونية ذات الطابع الوطني. المعنويات لها علاقة بالشعور بأنك بطريقة ما متصل بالناس في الوطن، وأنهم مرتبطون بك".

كأعضاء في جسد المسيح، نحن بالفعل: "مرتبطون معًا ببعضنا البعض وبالمسيح" وبوطننا السماوي الذي به سحابة من الشهود. إذا كان هذا الشعور من الترابط هو الذي أنشأ الروح المعنوية للجندي، فكم بالأحرى بالنسبة لنا كمسيحيين أن نعرف أننا لسنا أشخاصًا معزولين، فلا يوجد أحد يعيش في فراغ كبير من العدم؛ لكننا جميعًا نُشكّل جسد المسيح الواحد، وكلُّ واحد منّا ولو أنه عضو مفرد، ولكنته في الجسد وضروري للجسد: «لَا تَقْدِرُ الْعَيْنُ أَنْ تَقُولَ لِلْيَدِ: "لَا حَاجَةَ لِي إِلَيْكَ!" أَوْ الرَّأْسُ أَيْضًا لِلرِّجْلَيْنِ: "لَا حَاجَةَ لِي إِلَيْكُمَا!"» (انظر: ١ كو ١٢: ٢١).

ما الذي يجعلنا جسدًا؟

نحن أعضاء جسد المسيح من خلال أسرار المعمودية، وسر الميرون وسر الإفخارستيا. من خلال سر المعمودية، نحن نتصل بجسده كأعضاء، ومن خلال سر الميرون، فإن أعضاء جسدنا تُختم وتُدَهَن بالروح القدس وتكرّس لخدمة الله. ومن خلال سر الشركة المقدّس (التناول)، يأتي الرب يسوع ليحيا في أعضائه ليغذيها بقوته الإلهية وحضوره: «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو ٦: ٥٦). في الإفخارستيا نحن نتحوّل إلى ما تناولناه. الإفخارستيا تُعطينا للمسيح وللواحد الآخر، وبحسب كلمات أفاناسييف Afanasiev: "الإفخارستيا تصنع الكنيسة".

جماعة شعب الله التي تأكل نفس الخبزة، أي نفس جسد المسيح، تصير جسد المسيح: «فَإِنَّا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّنا جَمِيعًا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ» (١ كو ١٠: ١٧)، وبحسب كلمات القديس يوحنا الدمشقي St. John of Damascus:

[بما أننا نتناول من خُبزة واحدة، فنحن جميعًا نصير جسد المسيح الواحد ودما واحدًا وأعضاء بعضنا لبعض، ونصير جسدًا واحدًا مع المسيح]. (يتبع)

